استحقت عليهِ ثواباً لولا حرمانها من العقل كما انها لا تستحق عقاباً فيما تأتيه من السيئات بحق عجزتها وبحق المهزولين من صغارها وبحق ذكورها وملكاتها اللواتي عجزن عن التوليد

فالواجب على الانسان ان يدرس طباع الحيوان واخلاق العجماوات فيرتشد بها للصلاح اذا رآها حسنة ويستكف عنها اذا وجدها سيئة فانَّ الله اعطاهُ العقل لينوب عن تلك الحيوانات العديمة النطق ويتخذ عملها بالغريزة كمثال لعملهِ بالتعقُّل ليبلغ الغاية الشريفة التي انتدبهُ الله اليها فينال بخدمتهِ تعالى سعادة الدارين

من بيروت الى الهند

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

٤ الرها وملحقاتها

الرها مدينة متوسطة بيوتها مستندة الى منعطفي جبل يشرف عليها ويُدعى طوب داغ او كراداغ. وهي مركز قضاء لسنجق منسوب اليها وفيها يقيم المتصرف المنوط امرهُ بوالي حلب. واهلها يبلغون نحو ٤٢٠٠٠ نفس منهم ٣٠,٠٠٠ مسلم والباقون نصارى ارمن غريغوريون (٧,٠٠٠) وسريان يعاقبة (٢,٠٠٠) وبروتستان (١,٥٠٠) وكاثوليك (١,٠٠٠) ويهود (٥٠٠)

ويجري في وسطها جدول صغير يُدعى خليل الرحمان ويقرب اسوارها نهر « دارا قويون » يتحدَّر في الشتاء كالسيل الجراف ويمتزج بمياه خليل الرحمان وهو النهر الذي كان يدعوهُ السريان بديصان ومنهُ اشتق اسمهُ المبتدع الشهير ابن ديصان الذي عُرف في القرن الثالث للمسيح. وكان اليونان يسمُّون نبع خليل الرحمان بكاليروه (Καλλιῤῥόη) وهو علمٌ لاحدى الالهات البحرية عندهم فاشتق السريان منهُ اسم اورهي (ܐܘܪܗܝ) ثمَّ عُرّب بالرُّها و « تُرك » باورفا. وقيل انَّ اسمها السرياني سبق عهد الرومان وانَّهُ مركَّب من « اور » اي حصن و « هُي » علم المكان. وارتأى بعض الكتبة انها هي « اور » الكلدان (تكوين ١١ : ٣١) التي سكنها ابراهيم الخليل ومنها دعاهُ الله الى ارض الميعاد. ويوافق الامر تقليد اهلها الذين

يكرّمون خليل الله وبهِ دعوا نهرهم. وقد عُرفت الرها باسم آخر قديم لم يتفقوا في تعريف معناه وهو اذاسا « Edesse » فشاع هذا الاسم خصوصاً في الغرب (١

ومما لا يُنكر ان الرها مدينة قديمة يترقّى تاريخها الى عهد ملوك بابل ثم صارت الى اليونان بعدهم. الّا انّ اعظم شهرتها كان في زمن الاباجرة الوطنيين الذين اتخذوها كرسيًا لدولتهم. ثم استولى عليها الرومان سنة ٢١٥ للمسيح فبقيت في ايديهم الى ان فتحها العرب وملكوها ثم عاد الروم في سنة ١٠٣١ للمسيح وانتزعوها من ايدي صاحبها نصير الدولة بن مروان وبقيت في حوزتهم الى ان سلّموها الى الصليبيين فجعلها بغدوين اخو غودفريد دي بوليون كونتيّةً ثم أقطعها الامراء من اسرة دي كورتناي (de Courteney) ومنهم الكونت جوسلين (Josselin) ثم فتحها صلاح الدين سنة ١١٨٣ وتنقّلت فصارت في حكم الايوبيين واصحاب حلب والمغول والتتر حتى ضمّها الى دولة بني عثمان السلطان سليم الاوّل سنة ١٥١٧

ولعبت الرها دورًا عظيماً في عالم الدين والآداب. فبعد توغّل اهلها في الوثنيّة وعبادتهم للقوّات السماويّة كانت بين المُدن الاولى التي استنارت بضياء الايمان المسيحي. وقد نسب اصحابها تنصُّرهم الى مفاوضات دارت بين ملكها الابجر اوخاما اي الاسود والسيد المسيح فزعموا ان الملك ارسل الى الرب وفدًا وهو المشار اليهِ في انجيل يوحنا (١٢: ٢٠—٢٣) حيث دعاهم « قومًا من اليونانيين صعدوا الى اورشليم ليسجدوا في يوم العيد وطلبوا من فيلبوس ان يواجهوا السيد المسيح » فيقول السريان انّ هذا الوفد كان حاملًا رسالة للابجر يطلب فيها من المسيح ان يسير اليهِ في الرها ويبرئ برصهُ وانّ الرب اجابهُ انهُ سيرسل لهُ احد تلاميذهُ بعد قيامتهِ وانهُ هكذا تمّ فذهب ادّي احد السبعين الى الرها وابرأ الابجر وعمّد الاهلين. ويزيدون على ذلك انّ حنانيًا رئيس الوفد الرهاوي حاول ان يأخذ رسم السيد المسيح فاخذ الرب منديلًا وجعلهُ على وجههِ المقدّس فطُبعت عليهِ صورتهُ الالهيّة

فهذه القصة شاعت في الرها منذ اواسط القرن الثالث للمسيح كما ظهر من آثارها

(١) اطلب في المشرق (٨: ١٦٩) مقالة يوسف افندي غنيمة في الرها وتاريخها وآثارها وهي تغنينا عن تكرار ما جاء هناك

التي نشرت بالطبع (١ وكان اول مؤرخ الكنيسة اوسابيوس القيصري قد اطّلع عليها في خزانة سجلّات الرها فنقلها في تاريخه الكنسي (ك ١ ف ١٣) ثم رأتها في اواخر القرن الرابع الزائرة الاسبانيّة المسمّاة ايتيريا (Ætheria) التي اكتشف الاب غاموريني اخبار سفرها الى الاراضي المقدّسة فنشرها تحت اسم القديسة سيلفيا (Gamurrini : *Voyage de S^te Sylvie*) وانتشرت قصة تلك الرسالة وصورة السيد المسيح في كل الكنائس الشرقيّة حتى أقيم لها عيد تاريخه ١٨ آب

وبقيت الصورة والمنديل في الرها الى سنة الهجرة ٣٣١ (٩٤٣) حيث ارسل الملك رومانوس وطلب من الخليفة العبّاسي المتّقي ان يرسل اليه تينك الذخيرتين ويعدهُ بفكّ اسرى المسلمين . قال ابن العبري في تاريخه (ص ٢٨٧) « فامر المتقي بتسليم المنديل الى الرسل وارسل معهم من يتسلم الاسارى ». ويذكر المؤرخون انّ رسالة السيد المسيح تلفت في حريق حدث في القسطنطينيّة في القرن الثالث عشر . امّا المنديل فاهداه ملك الروم احد دوقة جنوة بشرط ان يرسل لهُ الدوق جنداً يعونهُ في ردّ غارات الترك . وهذا المنديل هو اليوم على ما يقال في كنيسة الارمن المكيتاريين في البندقيّة

هذه خلاصة قصة تنصّر الابجر الاسود ورسالة السيد المسيح (٢ التي يغلّب اهل النقد في عهدنا اصطناعها . ومهما كان من امر صحتها فلا بدّ من القول انّ مدينة الرها كانت من اوّل المدن التي عرف اهلها النصرانيّة لقربها من تخوم بلاد الشام ولوجود قوم من النحالها في اورشليم يوم حلول الروح القدس على التلاميذ وقد صرّح القديس لوقا في سفر الاعمال بذكر « اهل ما بين النهرين ». هذا مع كثرة الآثار التاريخيّة الشاهدة على ذلك في القرن الثاني للمسيح (٣ فلا يقبل العقل ان الرسل وتلاميذهم الذين ذهبوا الى اقاصي العالم ليبشروا بالمسيح اهملوا البلاد المجاورة لهم المستعدّة لقبول تعاليمهم

---

١) اطلب الكتاب (G. Phillips: *The doctrine Addai*) وكتاب تيكسرون عن كنيسة الرها L. J. Tixeron : *Les Origines de l'Eglise d'Édesse et la Légende d'Abgar*

٢) اطلبها منقولة عن تاريخ ابن العبري في مجموعنا مجاني الادب (١ : ٢٧٧)

٣) راجع في العدد السابق مقالتنا عن تنصّر عرب الجزيرة

ويطول بنا ان نتتبّع تاريخ الدين المسيحي في الرها الّا انهُ لا يجوز ان نسكت عن خدَمها الجليلة للآداب السريانيَّة اذ أُنشئت فيها تلك المدرسة العامرة التي اضحت موردًا للعلوم الدينيَّة والدنيويَّة منذ اواسط القرن الرابع وازهرت الى اواخر القرن الخامس حيث جنح اساتذتها الى البدعة النسطوريَّة فطُردوا منها وانشأوا عوضًا عنها مدرسة نصيبين وقد خرج من كلتا المدرستين رجال كبار لهم في التأليف والتدريس والنقل وسياسة الكنائس السريانيَّة والكلدانيَّة آثار استخرجها العلماء في هذه المدَّات الاخيرة من مدافنها كما وُجدت قوانين تلك المدارس التي تدلّ على حكمة اصحابها

ثم بقي الدين في الرها خاملًا بعد عهد الصليبيين وما حلّ على الرها من النوائب الى ان قام المرسلون اللاتينيُّون فانعشوهُ في القرن التاسع عشر فجاء الرهبان الكبوشيُّون الى اورفا سنة ١٨٤١ وشيَّدوا لهم ديرًا وفتحوا المدارس وقد زرنا مدرستهم فرأيناها كاحدى المدارس الثانويَّة في سوريَّة كان يتولَّى نظارتها وطنيُّنا الاب رافائيل السحيري. وللكبوشيين هناك كنيسة جميلة فيها قبر السيد مبارك بلانشه الذي كان دُفن بعد قتله في سويرك ثم نُقلت رفاتهُ الى الرها فصلينا لاجل راحة نفس هذا السيد المفضال وهو احد الثلثة الاوَّلين الذين انشأوا رسالتنا السوريَّة سنة ١٨٣١ فخدموها احسن خدمة

ويساعد الآباء الكبوشيين راهبات افرنسيَّات من رهبنة مار فرنسيس اتين الى اورفا منذ سنة ١٨٨٠ ولهنَّ مدارس للفتيات يقصدها بنات النصارى والمسلمين لحسن تربيتهنَّ. وقد فتحن ايضًا مستوصفًا يتقاطر اليهِ المرضى ليتداووا فيهِ

وزرنا في الرها كنيستي الارمن والسريان الكاثوليك وهما صغيرتان واكبر منهما كنيسة الارمن الغريغوريين وما كنَّا لنظنّ ان هذه الكنيسة في اواخر كانون الثاني سوف تُحرق بالنار ويُقتل فيها نحو ثلاثة آلاف ارمني حرقًا وتمثيلًا بين انظع العذابات فضلًا عمَّن ذُبحوا في الاسواق فانَّ مجموعهم على خمسة آلاف شخص ولولا انَّ كثيرين التجأوا الى دير الآباء المرسلين لكان عددهم مضاعفًا فحماهم الرهبان الكبوشيُّون وآووهم أيامًا وافرغوا ما في ديرهم من المؤونة لسدّ جوعهم وكسوتهم وتضميد جراحهم. وكذا فعلت الراهبات بمئين من النساء فاستحققنَ وسام الشرف الذي ارسلتهُ لهنَّ الدولة الفرنسويَّة مثنيةً على شهامتهنَّ

خريطة توضح أماكن الأقاليم الثقافية في أوربا

وزرنا ايضاً كنيسة اليعاقبة وهي قديمة على طرز الكنائس العتيقة وفي احد جوانبها شبه المصطبة عليها بعض الاقشة فذاك قبر صنّاجة السريان الذي سمّاه اهل زمانه كنّارة الروح القدس ونبيّ السريان اعني به الملفان العظيم واللسان المفوّه القديس افرام معلم وابا الكنائس السريانيّة فاخذنا العجب من اهماله في تلك الزاوية وتمنّينا ان تشاد يوماً على اسمه كنيسة كاتدرائيّة يحجّ اليها كل الشرق المسيحي ولاسيما الطوائف السريانيّة التي كان شرفها وفخرها المؤبّد. وفي هذه الكنيسة اليعقوبيّة بعض مخطوطات قديمة من جملتها نسخة كاملة من تاريخ البطريرك ميخائيل الكبير في القرن الحادي عشر كان وقف عليها اوّلاً غبطة السيد البطريرك اغناطيس افرام الثاني الرحماني ثم نشرها بالطبع في باريس الخوري شابو (J.- B. Chabot) مع ترجمتها الى الافرنسية

ومن آثار الرها بركتها المعروفة ببركة الخليل (اطلب الصورة) يُقات فيها لوجه الله صنف من الاسماك النهريّة كالشبّوط يُعدّ هناك بالالوف والربوات. وكنّا لحظنا مثل ذلك في بركة مجاورة لطرابلس. وعلى رأي بعض الاثريين انّ هذا بقيّة من عبادة وثنيّة (ichthyolatrie) كانت مألوفة في انحاء اليونان والشرق فيكرمون السمك تذكاراً للزهرة

وفي اعلى الجبل المطلّ على الرها بقايا قلعة قديمة اقامها اوّلاً اليونان ثم رمّمها العرب وقد اخذتها اليوم يد الخراب تُرى فيها اعمدة وسوار وحجارة منقوشة وهناك كتابات سريانيّة بالحرف الاسطرنجلي بعضها نصرانيّة وبعضها وثنيّة وكذلك اكتشفوا في البلد على بعض كتابات وردت فيها اسماء الاباجرة وخصوصاً ابجر التاسع المتنصّر في اواخر القرن الثاني . وقد وقفوا على مسكوكات كثيرة في الرها ترقى الى عهد الدول التي استولت عليها وقد ابتعنا منها قسماً لمتحف كليّتنا

وكذلك في انحاء هذا الجبل مغاور منحوتة في الصخر للسيّاح ومدافن قديمة عليها نقوش راقية الى عهد اليونان كانت تودع فيها نواويس الموتى

ومما يُرى في جوار البلدة بئر يدعونهُ نبي أيوب يزعمون ان الملك الابجر اغتسل فيه لمّا شفي من برصه على يد ادّي تلميذ المسيح ويسمّونهُ ايضاً « جبّ المنديل » مشيرين الى المنديل الذي ارتسمت عليه صورة ابن الله كما سبق. ومن مزاعمهم انّ

الاجر بعد شفائه تنسّك وسكن مغارة تُدعى حتى يومنا بمغارة الاجر واهل البلد من مسلمين ونصارى يزورون هذه الامكنة ويندرون لها لينالوا بركتها. ويقوم في حراسة الحبّ رجال برص يتعاقبون في نظارته ابًا عن جدّ وليس برص غيرهم في البلد

وطلبنا في اورفة الاجتماع ببعض رجال العلم فلم نستدلّ على احد منهم غير جناب مفتيها فأطلعنا على بعض مخطوطات مكتبته الخاصّة فكان اكثرها من التآليف الدينيّة والفقهيّة. وقد ارانا من تصنيفه تاريخًا لمدينة الرها كان يهتمّ بتنقيحه ليمثله للطبع

هذه بعض افادات حصلنا عليها في زيارتنا تلك الحاضرة الشهيرة التي كانت في الاجيال النصرانيّة الاولى نجمًا على مفرق الدهر وفيها كانت تُقام اسواق سنوية حافلة كان يتوارد اليها جماهير الناس من اقاصي المعمور حتى الصين والتتر

من الرها الى ماردين

قضينا في الرها يومين أرحنا النفس فيهما من مشاقّ السفر. ثم استأنفنا الرحيل بُعيد الظهر يوم الثلثاء الواقع في غرّة تشرين الاوّل. فقطعنا سهولًا غاية في الخصب تسقيها مياه غزيرة متحدرة من جبل اورفا منها نهر بالق وهناك جداول عديدة تترقرق في الغني وتنتهي كلها الى الفرات الذي لا يبعد كثيرًا. ويستغلّ الناس من تلك البقاع ضروب الغلّات والحبوب منها القمح البالغ معدلهُ في السنة ٩٦٠,٠٠٠ كيلة توازي ١٥٨,٤٠٠,٠٠٠ كيلو وقس عليه بقيّة الغلّات. ومن محصولات املاك اورفة السمسم والقطن والزيت والسمن بكميات بالغة لا يستطيع الاهلون تصريفها لعدم وجود طرق لنقلها الى الاسواق وانما ينقلون منها قسمًا صغيرًا فقط على ظهر الجمال. فاذا ما انتهت السكّة الحديديّة البغداديّة سوف تنقل تلك الغلّات فتزيد ثروة تلك البلاد وتنمو همّة اهلها في توسيع نطاق زراعتها

وبعد خروجنا من الرها بقليل لاحت لنا عن بُعد على يميننا اخربة مدينة حرّان التي تكرّر ذكرها في سفر التكوين وموقعها على مسافة ٣٥ كيلومترًا جنوبي الرها. وفيها كان مركز مهمّ لدين الصابئة وهيكل عظيم لسين إله القمر وقد روى المؤرخون انّ كهنة حرّان كانوا يضحون في بعض الاحيان ضحايا بشريّة لذلك الاله. ومن جملة من فعل ذلك القيصر يليانوس يوم خرج لمحاربة الفرس فخدعهُ كهنة حرّان ووعدوهُ بالنصر.

وقد روى ابو الريحان البيروني في الآثار الباقية (ed. Sachau, p. 205) نقلاً عن كتاب عبد المسيح بن اسحاق الكندي النصراني في جوابهِ عن كتاب عبدالله ابن اسمعيل الهاشمي انَّ الصابئة كانوا يُعرَفون بذبح الناس وانَّ الخليفة المأمون لمَّا تحقَّق امرهم اخرب هيكلهم وبدَّد شملهم

ودخلت النصرانيَّة حرَّان رغماً عن مقاومة الصابئة وصارت كرسيًّا لاساقفة كاثوليك اشتهر بينهم تاودورس ابو قرَّة صاحب الميامر الشهيرة من علماء الملكيين في اواخر القرن الثامن ومن اقدم كتبة النصارى في العربيَّة (اطلب المشرق ٦ : ٦٣٢)

كانت طريقنا من الرها الى ماردين في برِّيَّة قفراء ليس فيها مع خصبها سوى قرى حقيرة يسكنها قوم من الاكراد والاعراب يُعنون بجني الغلَّات او يرعون القطعان والمسافة بين المدينتين نحو ١٤٠ كيلومترًا يقطعها القفل بخمسة ايَّام. والمكارون يفضلون السير في الليل او اطراف النهار خوفاً من وطأة الحرّ التي تثقل على الرَّكب والدوابّ معاً. غير انَّ للسفر في الليل مشاقَّهُ ايضاً فانَّ النوم يستولي على المسافر فلا يكاد يصبر عليهِ فاذا ركب خيف عليهِ من السقوط واذا مشى عثرت رجلهُ بحجارة الطريق. وان تأخر عن القفل ليرقد قليلاً على حافة الطريق رصدتهُ شذَّاذ العرب وهمج الاكراد فسلبتهُ مالهُ كما عرض لاحد رفقتنا الذي لم ينجُ من رمح الاعراب الَّا باطلاق فردٍ كان في جيبهِ

كان محطّ رحالنا الاوَّل بعد خروجنا من الرها في قرية « بهيا » فلم نجد ما نبتاعهُ لطعامنا الَّا جدياً صغيراً جزرهُ الاعرابي بائعهُ امامنا وبعد قطع رأسهِ واطرافهِ اخرج منهُ لحمهُ دون سلخ جلدهِ بكل رشاقة وابقى لنفسهِ الجلد فاصطنع منهُ ظرفاً يربط الاطراف المقطوعة. وقام احد رفقتنا فاصلح اللحم بالشواء. فاستطبناه في تلك البرِّيَّة المقفرة

ثمَّ قمنا في منتصف الليل لنسير سيرنا ودخلنا في ولاية ذلك الكردي المتبدّ الشهير بابراهيم باشا الذي كان زعيماً لقبيلة من الاكراد تُعرف بالملِّيَّة واذ عجز السلطان عبد الحميد عن ردّ غارات قومهِ اتخذهم كانصار للدولة فنظم تلك الفرق الحميديَّة التي حوَّلت جهات ما بين النهرين الى مأوى لصوص وكان ابراهيم باشا من فرسانهم فلم يزل ينهب ويسلب حتى صارت تهابهُ كل الانحاء الواقعة بين نصيبين

واورفا وجعل مركز حكمهِ في ويران شهر بلدة قديمة قيل انَّها المدعوة في عهد الرومان بتغرانوكرت (Tigránocerte) اشتهرت بواقعة عظيمة جرت بينهم وبين الارمن وفيها الى يومنا آثار جليلة تدلّ على عظمها السابق . فهذه المدينة اصبحت حاضرة ملك ابراهيم الكردي الذي جازاه عبد الحميد عن لصوصيَّتهِ بلقب الباشا . فبقي متملكاً لتلك الانحاء قاهراً لكلّ سلطة نظاميَّة الى خريف سنة ١٩٠٨ بعد اعلان الدستور حيث أرسلت الجنود العثمانيَّة لمحاربتهِ فكانت الدورة عليهِ وعلى اكرادهِ ومات هو قتلاً

ولمَّا مررنا في املاك ابراهيم باشا لم يتعرَّض لنا احد من اكرادهِ لانَّ اصحاب القفل كانوا امَّنوا نفوسهم بدفع شيء من المال كجزية جعلها عليهم . ومما شاهدناهُ من مآثرهِ في مرورنا انهُ كان بلغهُ بانَّ بعض عرب شمَّر كانوا يرعون نوقاً كريمة عند نهر الخابور فارسل شرذمةً من اصحابهِ اغاروا عليهم واكتسحوا نوقهم ورأينا النوق المسلوبة تساق الى املاك ابراهيم باشا

وكان هذا الكردي مع ظلمهِ مسالماً للنصارى يُحسن معاملتهم ويرغبهم في المجيء الى ويران شهر للتاجرة . ولمَّا جرت تلك المذابح الهائلة في ذيار بكر والرها وتلّ ارمن التجأ حضرة الاب دانيال الكبوشي في ماردين الى حماية ابراهيم باشا وطلب منهُ ان يردّ الاكراد عن مهاجمة ماردين ففعل واستحقَّ بذلك ثناء النصارى وجازتهُ فرنسة بوسام شرف على يد الاب دانيال . الَّا انهُ بعد ذلك تشدَّد ايضاً على النصارى واخذ اموالهم . واغتصب من السريان الكاثوليك كنيستهم فجعلها اصطبلاً لخيلاتهِ وبقيت تحت قبضتهِ الى ان تُقل فرُدَّت لاصحابها في ٦ ك ٢ من السنة ١٩٠٩

وفي مساء يوم الاربعاء بتنا في تلّ عبدة من القرى التابعة لويران شهر . فيها مياه جارية الى الخابور احد روافد الفرات كما مرَّ . وفيها آثار خان ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (١ : ٨٦٧) ونسبهُ الى المجد بن المهذَّب وزير الملك الاشرف موسى ابن العادل . وليس بعيداً من تلّ عبدة عيون معدنيَّة كبريتيَّة يستحمّ بها بعض ذوي العاهات من اهل البادية وهي مهملة وفي جنوبيها على مسافة بضع ساعات مدينة قديمة تسمَّى رأس عين كان الرومان يدعونها مدينة ثاودوسيوس (Théodosio-polis) وقد دعيت برأس عين لعيون كثيرة تنبع فيها ثمَّ تجتمع فتصير نهر الخابور

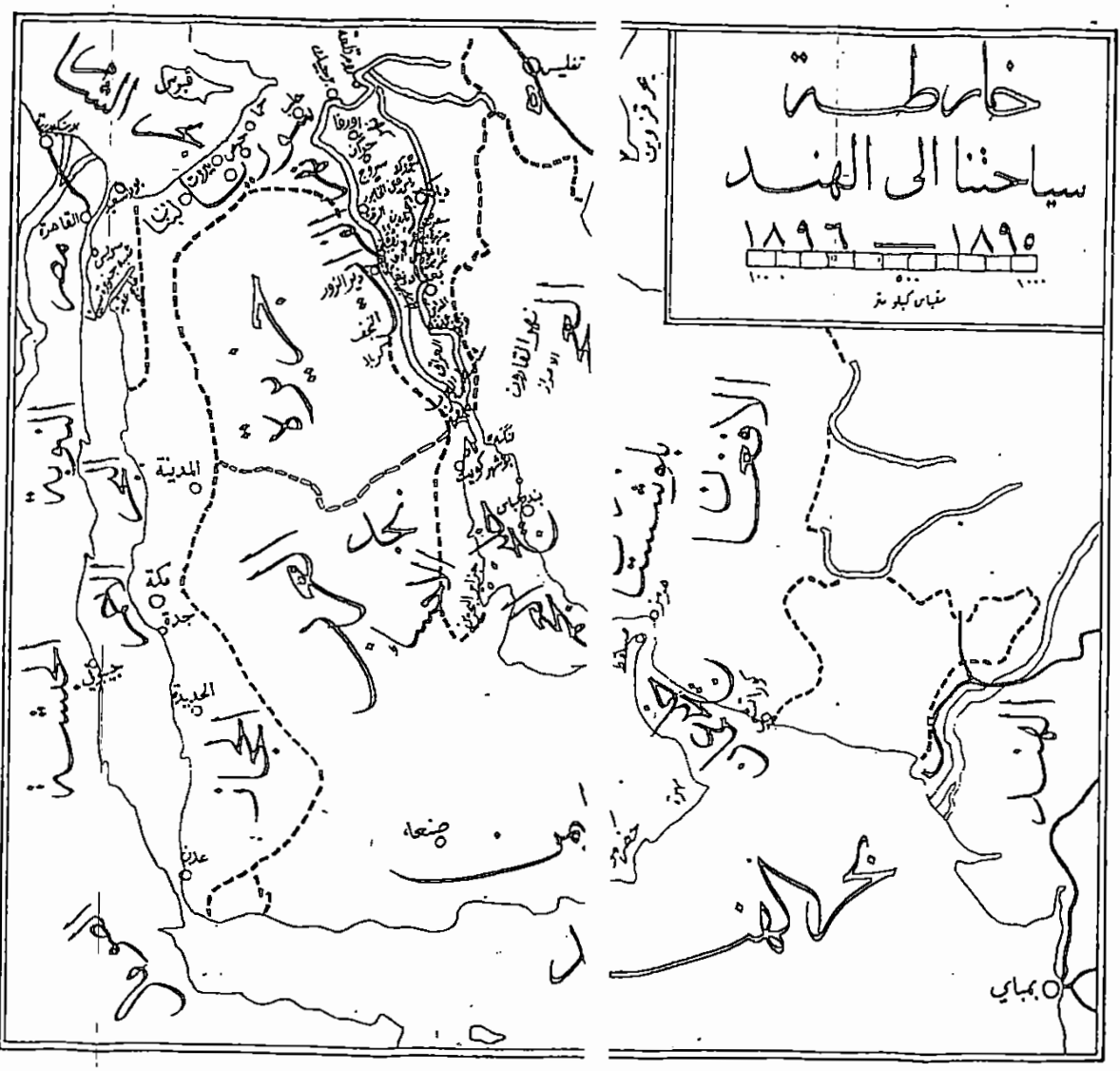
خارطة
سياحتنا الى الهند
١٨٩٥ — ١٨٩٦
مقياس كيلو متر
١٠٠٠
٥٠٠
١٠٠٠
بحر قزوين
تفليس
البحر الاسود
القاهرة
مصر
السويس
المدينة
مكة
جدة
الحبشة
جيبوتي
الحديدة
عدن
صنعاء
نجد
الحجاز
اليمن
الاحساء
الكويت
بوشهر
بندر عباس
بحر العرب
بمباي

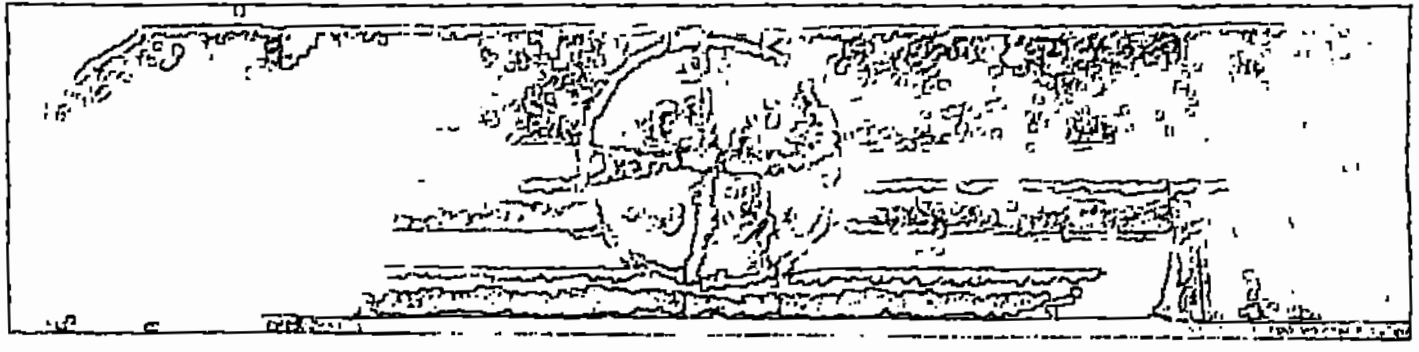

الاثر المكتشف في زَبَد قريباً من حلب وفيه كتابة بثلاث لغات يونانية وسريانية وعربية تاريخها سنة ٥١٢ للمسيح . والكتابة العربية طُبعت منفردة

الذي يصبُّ في الفرات. ومن رأس عين هـذه كان احد مشاهير السريان في القرن السادس للميلاد ألا وهو سرجيس الرأس عيني احد نقلة كتب اليونان الى السريانيَّة ولهُ عدَّة تآليف في الفلسفة وكان يعقوبيّ النحلة . وفي اواسط القرن السابق اسكن السلطان عبد العزيز رأس عين قوما من مهاجري روسيَّة من قبائل الشركس فقلَّ بهم الامان في تلك الناحية حتى غزاهم العرب فطردوهم . يبلغ اهلها اليوم ٢٠٠٠ نفس . وقد اكتشف البارون فون اوپنهيم (von Oppenheim) في رأس عين على آثار جليلة يُعنى اليوم باستخراجها من ردومها

وفي غلس يوم الخميس في ٣ من الشهر اذ رأيتُ البرد قارساً نزلت عن دابَّتي لاستدفئ بالمشي وسبقت القفل قليلًا واذا اعرابيَّان قاما في وجهي فاوقفاني بحجة الكرنتينة ولم يكن وقتئذٍ ذكر للهوا. الاصفر في تلك الجهات وانَّما فعلا ذلك املًا بالبخشيش. لكنهما اذ سمعاني اتكلم بالعربيَّة ورأيا ان القفل ليس ببعيد لم يجسرا على أذاي فمشيت في طريقي دون معارضة. ولمَّا استوى عمود النهار رأينا واذا السما. كادت تحتجب علينا باسراب من الطيور القواطع وهي القطا من طيور البرّيَّة كانت في ابَّان انتقالها وقد ذكَّرتنا ألوفها المؤلفة ومئات الوفها بساوى بني اسرائيل والقطا جنس من الساوى مكتنزة اللحم كالحجل والعرب يلتقطونها ويبيعونها الواحد بفلسين

ونحن سائرون في الطريق اذ استقبلنا قوم من الاهل والاقارب كانوا قدموا من ماردين لملاقاتنا ومرافقتنا فقضينا بقيَّة ذلك النهار بافراح الوصال والمؤانسة بالاحباب. وبتنا مساء في هلالي. وهي قرية ملتفَّة حول تلّ وفي اعلى التلّ بيت يسكنهُ آغا المكان وهو من شيعة اليزيديَّة داخل في خدمة ابراهيم باشا. فزرناه ووجدناهُ لا يُضاهى من بعض الملمام بالتاريخ وباحوال الدولة فسرَّ بزيارتنا والقى علينا عدَّة اسئلة عن رومية العظمى. ومما قالهُ لنا انَّهُ وجد في كتبهِ انَّ رومية لا تصاب بعدوى منذ نُقل اليها جسم افلاطون فصار لها طلسماً . فاخذنا العجب من هذه السفاسف واذا بشيخ ضرير كان هناك اردف قائلًا: لم يعصم الله غير مدينته مكَّة من كل ضلال وعُدوى. فأمَّنَّا على قولهِ الحضور لكنَّ الآغا قاطعهُ بقولهِ: والله اعلم. امَّا نحن فقمنا مودّعين للآغا وشاكرين لطفه

واذ سنحت لنا الفرصة بذكر هؤلاء اليزيديَّة يحسن بنا ان نحيل قرَّاءنا الى ما

كتبهُ عن هذه الشيعة واصلها وتاريخها ومذاهبها واقسامها (في المشرق السنة الثانية ١٨٩٩) حضرة الاب انستاس الكرملي. وقد عدَّد هناك الامكنة التي يسكنونها وفاتهُ ذكر يزيديَّة ماردين وديار بكر وسويرك واورفا وحلب فانَّ عددهم يبلغ في تلك المدن او في جهاتها نحو ١٥,٠٠٠ نفس على انَّ عددهم الاوفر انَّما هو في جبل سنجار وفي قرى شيخان اللاحقة بولاية الموصل (١

قمنا من هلالي ساعتين بعد المغرب لنصبح في تلّ الارمن. فشينا ثماني ساعات في ليلة مقمرة وسط سهول مخصبة تجري فيها انهار صغيرة قطعناها كنهر جرجيب ونهر زرغان من سواعد نهر الخابور وكان وصولنا الى تلّ ارمن عند طلوع الشمس. وكان اهلها — واكثرهم من الارمن الكاثوليك — في ذلك النهار مقيمين عيداً عظيماً لرسولهم القديس غريغوريوس المنوّر. وهم لابسون ثياب العيد وعلى وجوههم سمات الفرح. فاستبشروا بنا ورأوا في قدومنا مزيد افراح على العيد فاجتمعنا بهم وقدَّمنا الذبيحة المقدَّسة امام الشعب في كنيستهم الزينة بجليها الفاخرة

وقد سُررنا على الاخص بمقابلة كاهن تلّ ارمن بل سندها وعميدها حضرة الخوري يعقوب فرجيان احد تلامذة مدرستنا الاكليريكيَّة في غزير الذي كنَّا عرفناهُ سابقاً وتواردت علينا الاخبار المنبئة بغيرتهِ فانهُ كان منذ نحو عشرين سنة لا يزال يصرف الهمَّة في تدبير رعيَّة تلّ ارمن وتهذيب صغارها وكبارها فازدهرت بمساعيهِ ايّ ازدهار وصارت قدوة لنصارى تلك الانحاء بتقوى اهلها وآدابهم المشكورة. بل كان الاب يعقوب محبوباً لدى جميع اهل القرى المجاورة من نصارى ومسلمين فيقصدونهُ في حاجاتهم ويتحاكمون اليهِ في خصوماتهم ويدعونهُ لعيادة مرضاهم. فمذ حضرتهُ مرورنا بهِ في ذلك النهار يوماً سعيداً كان يودّ ان يطيل فيهِ بهجة الوصال لولا انَّ اصحاب القفل كانوا معوّلين على الوصول الى ماردين في اليوم عينهِ

كانت تلّ ارمن يوم اجتيازنا بها بلدة عامرة ينيف عدد اهلها على ٢٠٠٠ نفس لكن الاكراد بعد شهرين نهبوها واخربوا بيوتها وقتلوا بعضاً من اهلها وفرَّ الباقون

---

١) اطلب ما كتبهُ في السنة المتصرمة الرحَّالة هوغو غروث (Hugo Grothe) في رحلتهِ التي عنوانها (Meine Vorderasienexpedition, p. 88-210)

الى ماردين ولولا الاب يعقوب الـذي قاسى في نجاتهم اشدّ الاهوال لذهبوا جميعاً فريسة عجيّة الاكراد

وفي تلّ ارمن ردوم وانقاض متكوّمة تدلّ على انها كانت في قديم الزمان مدينة جليلة. والمظنون انها قامت في مكان مدينة دُنَيسِر الشهيرة في تاريخ القرون الوسطى وكان فيها كرسي للاساقفة

ماردين شمالي تلّ ارمن تعلو فوقها بنحو ٣٠٠ متر فيراها المسافر في وجهه على مسافة يومين . واذا سار من تلّ ارمن عهدها حصناً حصيناً حريزاً لا يُصعد اليه الّا بشقّ النفس او ظنها عشّاً لا يأوي اليه سوى الغربان . فيقطع اوّلاً سهلاً كثير المزدرعات ثمّ يرقى شيئاً فشيئاً المعاطف المتصلة بالسهل الى ان يبلغ حلف الجبل الذي بُنيت المدينة في قتهِ فيتوغّل في عقبة كؤود ومنافذ ضيقة منحوتة في الصخر ضربت بوعورتها الامثال فيصعد فيها نحو ساعة من الزمان الى ان يؤدي بهِ المسير الى سور يكتنف المدينة وقد تُلم قسم كبير منهُ بفعل الدهر واهمال الدولة

ثم تظهر المدينة منتشرة حول الجبل تركب بيوتها بعضاً فوق البعض كانّها الدرج المتصاعد وفي رأس الجبل صخور عظيمة منتصبة كانّها قلعة حصينة شيّدتها الطبيعة لحفظ المدينة في حماها. وعلى هذه القلعة الطبيعيّة شيّد البشر قلعةً ثانية صناعيّة اكملت حرزتها فائتلفت القلعتان ائتلاف المثل بالمثل واهل ماردين يدعون قلعتهم القرقس ويروون عنها اخباراً عجيبة ومن رآها ظنّ انهُ ليس قلعة احصن منها ولا احكم بنياناً ولا ابدع منظراً والراقي اليها يشرف على بساتينها الممتدّة في شمالها وشرقها ويكشف على عدّة مدن وقرى في جنوبها وغربها الى مسافة بعيدة وهو منظر فتّان لا يُحصل عليهِ في غيرها من البلدان

فالى تلك المشارف كان صعودنا بعد ظهر ذلك النهار والشمس ترسل علينا اشعّتها المحرقة فتذكّرنا بعض قُلل لبنان الشاقة رقيناها في سياحاتنا السنويّة لكننا صبرنا على التعب ونحن نعلم ما سنجد في ماردين من الراحة ورطوبة الهواء والمناظر الرائعة

وما اعتلينا فوق آخر ربوة حتى سمعنا هتاف الوافدين من المدينة لاستقبالنا من اصحاب واقارب وكهنة فنبهتنا جلبتهم ونحن لم نكن منتظرين قدومهم فدخلنا

ماردين في موكب حافل وسرنا قبل كل الى كنيسة الكلدان لنشكر الله على تسهيل طريقنا وسلامتنا (لهُ بقيَّة)

النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

النصرانية في الجزيرة (تابع)

ثم انَّ مؤرخي الاسلام مع قلة ما كتبوا عن عرب الجزيرة في الجاهليَّة ذكروا غير مرَّة نصرانيَّتهم وصرَّحوا كما بيَّنَّا سابقاً بنصرانيَّة بني اياد بن نزار (المشرق ١٤ : ٨٨٩) سواء قيل انَّهم تنصَّروا قبل دخولهم في حكم الرومان او بعد خروجهم من بلاد فارس اذ لحقوا بالجزيرة . وكذلك اثبتوا نصرانيَّة ربيعة المحتلين في ديار ربيعة وديار بكر . قال ابن قتيبة في كتاب المعارف (طبعة مصر ص ٣٠٥) : « وكانت النصرانيَّة في ربيعة » . وقال صاحب السيرة الحلبيَّة (ج ٣ ص ٩٥) : « ومن قبائل العرب المتنصرة بكر وتغلب ولخم وجهراء وجذام » . وبقيت بعض هذه القبائل على نصرانيتها زمناً طويلاً بعد الاسلام كما ترى في الآثار الباقية وفي كتب العرب والسريان بل ربما ذكروا اساقفة لبني مَعدّ وتنوخ وعقيل (١ . وجاء في ترجمة ماروتا اسقف تكريت انهُ جعل تحت حكمهِ ثلاثة اساقفة كانوا يدبّرون قبائل العرب وهم اسقف بيت رامان او بيت رزيق ثم اسقف بني جرم واسقف بني ثعلبة (٢

وكان نصارى غربيّ الجزيرة يتردَّدون الى مشهد القديس سرجيوس او سرجيس

---

١) اطلب الآثار الدريانية مجموعة لند (Land: *Anecdota Syriaca*, I, 47, 50) وفي منتخبات لاگرد (Lagarde: *Analecta Syriaca*, p. 108)

٢) اطلب السمعاني (المكتبة الشرقية ٢ : ٤١٠)